تراثنا في الفنون

أ. د. حسين نصار(*)

واضح أن كلمة التراث مأخوذة من الأصل (ورث) المعروف المعنى . ولكن المفكرين ـ وأخص المشرِّعين ـ عندما أرادوا أن يعرِّفوا التراث ليسنوا القوانين لصيانته والحفاظ عليه اختلفوا. فذهب جماعة منهم إلى أنه ما مضى على ابتداعه خمسون سنة، وجعلتها جماعة أخرى مئة سنة. وكان ذاك هو الرأى الذى استقر عليه المشرعون. ومع ذلك ، فإننى أتحدث هنا عن التراث بصفته إنتاج الماضى ، الذى قد يوغل فيصل إلى فجر الإنسانية على الأرض، وقد يفرط فى القرب فيبدأ مع مبدأ اليوم الذى يسبق يومنا الذى نعيش فيه .

وإذا نظرنا إلى تراثنا العربى من حيث زمان إنشائه ، أمكن لنا أن نقسمه إلى جاهلى وأموى وعباسى... إلخ . فإذا قصرنا النظر على مصر، أمكننا أن نقسمه إلى فرعونى وهيلينى (بطلمى) ورومانى وبيزنطى وقبطى وعربى وطولونى وإخشيدى وفاطمى وأيوبى ومملوكى وعثمانى وحديث.

وإذا نظرنا إلى الأدبى العربى بخاصة من حيث مكان إنشائه، كان لنا أن نجد فيه جميع الأقطار التى خضعت للخلافة الإسلامية: أموية كانت أو عباسية أو فاطمية أو مملوكية أو عثمانية، وجميع الأقطار التى دخلها الإسلام. ودفع بعض أبنائها إلى المشاركة فى الثقافة العربية ، لأنها كانت متحدة ثقافيًا على الرغم من اختلافها السياسى.

وإذا نظرنا إليه من حيث طبيعته ، وجدناه يحتوى على المعارف والفنون والصناعات، وأخص منها بالذكر فن القول وفن التشكيل.

ويحتوى كل واحد منهما على عدة فنون. فيحتوى فن القول على الفن الخاص والفن الشعبى، ويتشعب كل منهما إلى فن الشعر والخطابة والأمثال والقصة وما ماثلها . ويحتوى فن التشكيل قديمًا على فنون الرسم والنحت والتمثيل. ويحتوى حديثًا على ما جَدَّ من تصوير وسينما وتليفزيون وما ماثلها .

---

* المشرف العلمى لمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

وواضح من هذه اللمحة الخاطفة أن التراث العربى عامة ، والمصرى خاصة، ذو امتداد تاريخى سحيق، وانبساط مكانى فسيح، وتنوع لا يوجد له مثيل إلا فى أقطار محدودة .

ومن أجل هذا، واجه هذا التراث الحملات فى العصور الحديثة . فقد زعم بعض المتحمسين للثقافة الأوربية، وبعض المعجبين بالحضارة الفرعونية، أن زمان الحضارة العربية قد انقضى ، وأن الواجب علينا أن نطرحها وراء ظهورنا . وانضم إليهم - فى هذه الأيام - الداعون إلى العولمة من الأمريكيين، والمؤمنين بها من المتأمركين، وآزرتهم أجهزة الإعلام الموجه التى تكاد تطغى على كل شىء.

وغاب عن كل هؤلاء أن التراث ليس عباءة يمكن خلعها وطرحها، وإنما هو كيان فكرى وجدانى أخلاقى. قد يظن الناس أنهم تخلصوا منه، وهو كامن فى أعماقهم.

وغاب عنهم أن التجديد - إن أريد له البقاء والانتشار - يجب أن ينبع من القديم أو بعده أو ضده. فلا بد أن يتعمق المجدد - الذى يعيش تجديده وينتشر - الأعمال القديمة، والقوانين التى اعتمدت عليها ، والمعايير التى طبقتها ، قبل كل شىء.

لذلك كان أستاذنا أمين الخولى يردد مقولة مختصرة تعلن: «أول التجديد قتل القديم علمًا».

وأبدى أحمد عبد المعطى حجازى - الذى يعده النقاد الآن أكبر رواد حركة الشعر الحر أو شعر التفعيلة فى مصر - أبدى إعجابه بالكاتب المسرحى الكبير ألفريد فرج، الذى «تتلاقى فى مسرحه الأفكار والنصوص ، وتتفاعل اللغات والثقافات، ويتأثر بعضها ببعض» . وأعلن أن ألفريد فرج تأثر بالتراث الفرعونى والتراث العربى ومسرح شكسبير ... إلخ .

وغاب عنهم أن أوربا والأقطار العربية عندما أفاقت من سباتها، وسعت إلى الخروج من الظلام الثقافى الذى لفّها، وجدت أن الذى يأخذ بيدها فى هذا السعى هو العودة إلى التراث الماضى، تلك العودة التى سماها المفكرون الأوربيون New classism . وسماها النقاد العرب حركة الإحياء، وكان رائدها الأول محمود سامى البارودى؛ وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم من أبرز زعمائها فى مصر. وكانت هذه الحركة الطريق الأول إلى النهضة الثقافية الحديثة.

بل غاب عنهم أن من الفنون ما يعتمد أساسًا على التراث. فالرواية التاريخية، والشعر الملحمى، والشعر التاريخى والدينى تتخذ من أحداث الماضى موضوعًا ورموزًا

لها ، تنجح إذا استطاعت أن تستبطنها، وتصل إلى أغوارها، وتدرك حقيقتها، وتستخلص مغزاها الجوهرى، وتبرزه فى صورته الفنية الحقة والخالدة ، ويحكم عليها بالإخفاق إن لم تفعل ذلك.

وغاب عنهم وجود أنواع من الشعر تعتمد على ما سبقها. أعنى المناقضات والمعارضات. فالفن الأول يقوم على شاعر يهجو آخر أو قبيلته. فيحاول الشاعر الثانى أن ينقض عليه قصيدته. فيلتزم فى قصيدته بوزن قصيدة الشاعر الأول وقافيتها، مع الرد على ما جاء فيها من مضامين. وفى المعارضات يعجب شاعر أو أكثر بقصيدة لأحد الشعراء المعاصرين أو السابقين، فيسعى إلى نظم قصيدة من وزنها وقافيتها، دون التعرض لمضامينها. يفعل ذلك مستفيداً من موسيقا القصيدة الأولى، وما كسبته من إعجاب النقاد وحب الناس، راجيا التفوق عليها أو مساواتها . وكان هذا النمط الفنى الركيزة الأولى فى حركة الإحياء الشعرى العربى. وما أكثر الشعراء الذين حازوا هذا الفضل فى قصائد لهم كثرت القصائد التى دارت فى فلكها . وكل متصل بالأدب العربى يعرف بردة كعب بن زهير ، وبائية أبى تمام، وسينية البحترى، ونونية ابن زيدون، وبردة البوصيرى وهمزيته وأمثالها ، ويعرف مدى سيطرتها على عقول الشعراء العرب.

تكشف لنا هذه الجولة أن دور التراث فى فن الأدب وحده دور كبير يتعذر على بحث واحد أن يستقصى أجزاءه، فما بالك إذا أراد الباحث أن يتعرض لعدة فنون. ولذلك يجدر بنا أن ننظر إلى كل واحد من أنواع التراث على حدة، إذا أردنا أن نتعرف الموقف قديما وحديثا، موقفنا وموقف الفكر العالمى.

أما **التراث الأدبى الشعبى** فقد احتفل شعراء التفعيلة خاصة بأبطاله، مثل: أدهم الشرقاوى وزهران .

وأما **التراث الموسيقى الشعبى** فقد احتضن نغمات منه الموسيقا الدينية والأدعية وبعض ألحان السنباطى ومحمد عبد الوهاب ومحمود الشريف وأحمد صدقى ومحمد الموجى وبليغ حمدى وغيرهم، فى الأغانى الفردية ، والجماعية الوطنية ، والبرامج. وأقرب الأمثلة إلى ذاكرتى برنامج الصوفية "رابعة العدوية" .

وأما **التراث الشعبى العام** أو الحياة والتقاليد الشعبية فتأخذ حصة كبيرة ومتقدمة فى الرسم والسينما والتليفزيون ، كما تبين لنا نتيجة استفتاء أفضل مئة فيلم روائى طويل فى تاريخ السينما المصرية، ذلك الاستفتاء الذى قام به مهرجان القاهرة السينمائى الدولى العشرون عام ١٩٩٦، واعتمد فيه على النقاد السينمائيين.

فقد احتل فيلم "العزيمة" الواقعى ، الذى أخرجه كمال سليم سنة ١٩٣٩ المقعد الأول، بدرجة ٩٥ من ١٠٠ . وشغل فيلم "الحرام" من إخراج هنرى بركات المقعد الخامس، و "شباب أمراة" و "الفتوة" وكلاهما من إخراج صلاح أبو سيف سنتى ١٩٥٦ و ١٩٥٧ المقعدين السادس والعاشر . واحتل المقعد ٦١ فيلم "أمير الانتقام" من إخراج بركات سنة ١٩٥٠، وهو مقتبس من اللغة الفرنسية، غير أننا نجد فيه لمسات من عالم ألف ليلة وليلة والسير الشعبة . وإذا أردنا النظر فى الأفلام المختارة فى هذا الاستفتاء، وجدنا كثيرًا منها من هذا النمط الشعبى أو الذى يحتوى على لمسات شعبية.

وهذا النمط من الحياة - مع ما تعرضه ألف ليلة وليلة - هو الذى جذب أنظار السينمائيين والتليفزيونيين الأوربيين والأمريكيين، وخلب ألبابهم، ودفعهم إلى إصدار الأعمال المتوالية، مصورة لها ومستلهمتها.

وأما التراث الأدبى الحديث، فلم يقنع بقيمته المحلية عند العرب ، وتجاوزها إلى أنحاء العالم. فتُرجم كثير من أعماله الشعرية والروائية إلى كثير من اللغات. ثم سما فوق كل هذا، فحاز أحد أعلامه جائزة نوبل العالمية.

ونجده يحوز النصيب الأكبر من أفلام السينما المختارة. نجد فى المئة المختارة ٣٥ فيلمًا من التراث الأدبى، يحوز نجيب محفوظ ١٣ منها، وتوفيق الحكيم ٤ . ويوسف السباعى ٣ ، واثنين لكل من إحسان عبد القدوس ويحيى حقى، وواحدًا لكل من: إبراهيم أصلان، وأحمد رشدى صالح، وأمين يوسف غراب، وثروت أباظة، وطه حسين ، وعبدالحميد جودة السحار، وعبد الرحمن الشرقاوى، وعلى أحمد باكثير، ومحمد حسين هيكل، ومحمود البدوى، ويحيى الطاهر عبد الله.

ولذلك يقول أ٠د٠فاروق الرشيدى أستاذ الإخراج بالمعهد العالى للسينما بأكاديمية الفنون : "نستطيع القول: إن هناك كثيرًا من كتاب السيناريو والمخرجين نهلوا من التراث الأدبى لكبار كتابنا الكثير. وأصبح هذا التراث الأدبى الموجود عبر القرن العشرين الماضى يعتبر تراثًا سينمائيًا ذا قيمة فنية عالية للتأثير على المتلقى من الناحية الوجدانية والثقافية".

ويقول فى تعليل ذلك :" هكذا نرى أن التراث الأدبى كان له التأثير الأقوى فى استمتاع المتلقى من الناحية الوجدانية والثقافية عندما يتحول إلى أفلام، حتى إننا نطلق على زمن السينما القديمة (زمن الفن الجميل) حيث إنه كان يرتوى من نبع التراث الأدبى الجميل لكتابنا الكبار الذين كان لهم الفضل فى التنمية الثقافية للجميع".

ويأتى التراث السينمائى التاريخى بعد التراث الأدبى فى المقدار. ويتوزع على التاريخ الفرعونى والعربى والإسلامى والحديث. ولا يوجد من مخرجينا من أخرج أكثر من فيلم واحد منه. والظاهرة اللافتة وجود مخرجين أجنبيين اثنين شاركا فى الإخراج، هما: فريتز كرامب الذى أخرج "لاشين" سنة ١٩٣٩، وأندرو مارتن الذى أخرج "وا إسلاماه" سنة ١٩٦١ .

وإذا تركنا التراث السينمائى الذى كنا فيه إلى التراث الأدبى، وجب علينا تقسيمه إلى الأدب القديم والأدب الحديث. أما التراث الأدبى القديم فقد فرضت روائعه نفسها وغيرها على العرب والمستعربين فى كل مكان وزمان .

وعبثٌ أن أتتبع حديث العرب عن الأدب العربى القديم. وإنما أكتفى بأن أنقل قول عميد الأدب العربى ، وأستاذ كل مشتغل به، د٠طه حسين :" الأدب العربى: شعره ونثره وعلمه وفلسفته، لا يمكن بحال من الأحوال أن يقل عن الآداب الأربعة القديمة. بل هو - من غير شك - متقدم على اللاتينى والفارسى. وإذا لم يكن بد من أن يكون له مناظر، وأن الأدب العربى ينحنى له، مع شىء من الإجلال الذى تملؤه العزة ، فهو الأدب اليونانى...

إذن فبين هذه الآداب الأربعة : اليونانى والفارسى واللاتينى والعربى؛ بين هذه الآداب التى شاعت فى العصر القديم والقرون الوسطى لا أكاد أعترف إلا أن أولها اليونانى، ثم يليه الأدب العربى (من حديث الشعر والنثر ص ١٧ ، ١٩).

وقد سبق المستعربون من الأوربيين العربَ فى الاحتفاء العظيم بالأدب القديم؛ فبذلوا الجهود الخالصة فى تحقيق مخطوطاته، وترجمة أعماله نثرًا وشعرًا، ونشر الدراسات عنه. ويكفى أن نتذكر كتاب المستشرقين الذى ألفه نجيب العقيقى، وكتاب مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية والإسلامية الذى أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وكتاب IsIamicus Index الذى تصدره مكتبة المتحف البريطانى وغيرها لنتأكد من هذا الاحتفاء.

وأعتقد أن الإشارة إلى ما حازته ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة لعبد الله بن المقفع، وحى بن يقظان لابن طفيل، من ترجمات متعددة إلى لغات العالم، ومن إعجاب القصاصين العالميين بها، ومدى ما كان لها من آثار فى الآداب العالمية، وأثر الغزل العذرى العربى فى الشعراء الجوالين فى جنوب فرنسا الذين عرفوا باسم التروبادور Troubadour- كافية للبرهنة على ذلك.

وأما التراث الموسيقى الخاص ، فقد كان للقديم منه آثار فى الحضارة الغربية أكثر مما للتراث الحديث. حقا نسمع عن نغمات أخذها هذا الموسيقى أو ذاك من محمد عبد الوهاب أو رياض السنباطى أو فريد الأطرش ، ونسمع عن مدارس أجنبية لتعليم "الرقص الشرقى" ، وحفلات له تحييها راقصات غير عربيات، ولكن ما أخذه الموسيقيون العرب من الغربيين يفوق الحصر، ويأتى على رأسه الموسيقا الكلاسيكية.

أما التراث الموسيقى والأدبى القديم فقد تأثر به الأوربيون كثيرًا. فقد أخذوا من الآلات الموسيقية :

١- **العود** Lute الذى احتفظ بنطقه العربى ، مع إدغام أداة التعريف فيه؛ وحذف العين المفقودة فى اللغات الأوربية . وقد دخل أوربا فى أواخر القرن ١٣ الميلادى، وبقى بصورته العربية مدة، وشاع بين مغنيهم، فتعددت أوتاره وأحجامه. واستمر فى الوجود إلى منتصف القرن ١٨ حين طغى عليه البيانو، فكان عدد كبير من العيدان فى الأوركسترا الذى صاحب تقديم أوبرا أورفيو Orfeo للمؤلف الموسيقى الإيطالى كلوديو مونتفير دى (١٥٦٧ - ١٦٤٣) سنة ١٦٠٧م. وخص العود بالتأليف الموسيقى المنفرد جماعة من كبار الموسيقيين، أذكر منهم: الإيطالى أنطونيو فيفالدى Antonio Vivaldi (١٦٧٨ - ١٧٤١) والألمانى يوهان سباستيان باخ Johann sebastian Bach (١٦٨٥ - ١٧٥٠) والألمانى جورج فردريك هاندل George Freideric Handel (١٦٨٥ - ١٧٥٩).

٢ - **الربابة**: التى دخلت أوربا فى القرن ١١، فعرف الأوربيون الآلات الوترية ذات القوس، وصنعوا منها عدة أنواع. فوجد منها عند الفرنسيين Rubebe و Rubella، وعند الإيطاليين Renec و Rubeca ثم اشتقوا منها violino الإيطالية و Violin الإنجليزية وما أشبههما من أسماء. ومن المظنون أن آلة Ribible التى ذكرها كُتَّاب العصور الوسطى ذات صلة بها.

٣- **الهارب** Harp آلة مصرية يظن أنها تعود إلى القرن ١٣ قبل الميلاد.

٤- **الأورغن** Hydraulus اخترعه المصريون فى القرن ٣ قبل الميلاد ، وأخذه الرومان عنهم، ثم اختفى فى القرون الوسطى .

٥- **الجيتار** : أدخله المسلمون The Moors إلى إسبانيا فى القرن ١٢، وشاع فى القرنين ١٦ و ١٧، وشاع فى القرن ١٧ فى فرنسا وإيطاليا، وفى أواخر القرن ١٨ عَمَّ أوربا كلها .

٦- **الكوسات** Kett ledrums المحتمل أنها دخلت أوربا فى عصر الحروب الصليبية، وكانت معروفة فى إنجلترا فى القرن ١٤ .

وأخذ الأوربيون عن طريق إسبانيا رقصة Zambra، ورقصة Saraband التى شاعت فى إسبانيا وإنجلترا وفرنسا فى القرن ١٦، والمظنون أن الرقصتين شرقيتان.

ونستطيع أن نتبين آثار تراثا فى الأعمال الآتية :

فن الأوبرا :

١- **أوبرا** أبو حسن للألمانى كارل ماريا فون فيبر Carl Maria Freidrick weber (١٧٨٦ - ١٨٢٦) التى عرضت فى ميونخ فى ١٨١١/٦/٤ .

٢- أوبرا حلاق بغداد للألمانى بيتر كورنليوس (١٨٢٤ - ١٨٧٤) Peter Cornelins التى عرفت فى فايمار سنة ١٨٥٨ .

٣- أوبرا التمثال للفرنسى إرنست راى (١٨٢٣ - ١٩٠٩) Ernest Reyer التى كتبها سنة ١٨٦١ .

٤- أوبرا جلنارة للروسية جوليا فايسبرج (١٨٨٠ - ١٩٤٢) Julia Weisberg

٥ - أوبرا معروف الإسكافى للفرنسى هنرى رابو (١٨٧٣ - ١٩٤٩) Henri Raboud التى ألفها فى ١٩١٤ .

٦- أوبرا شهرزاد للإسبانى روبرتو جير هارد (١٨٩٦-١٩٧٠) Ruberto Gerhard .

٧ - أوبرا علاء الدين والمصباح السحرى للسويدى كورت أتيبرج Kurt Atteberg (١٨٨٧ - ١٩٧٤) التى ألفها فى ١٩٤١ .

فن الباليه

١- أرابسك Arabesque: وقفة معينة تؤديها راقصة الباليه.

٢- بابل : موسيقا جاك أُفنباخ (١٨١٩ - ١٨٨٠) Jacqes Offenbach تصميم مارى تاجيلونى Marie Taglioni عرض فى أوبرا باريس فى ١٨٦٠/١١/٢٦ .

٣- كليوباتره : موسيقا أنطونيو أرنسكى (١٨٦١ - ١٩٠٦) Antonio Stepanovich Arensky وآخرين. عرض فى باريس فى ١٩٠٩/٦/٢ .

٤- شهرزاد: موسيقا رمسكى كورساكوف (١٨٤٤ - ١٩٠٨) Nicholas Andreievich Rimsky - Karsakov وتصميم فوكين Fokine وعرض فى أوبرا باريس فى ١٩١٠/٦/٤

٥- الحمراء : Alhambra موسيقا جورج جاكوبى (١٨٤٠ - ١٩٠٦) George Jacob وعرض فى لندن سنة ١٨٧١ .

٦- Capraccio Espagnob موسيقا رمسكى كورساكوف، وتصميم مسين Massine مع مساعده أرجنتينيتا Argentinita وأخذ منه فيلم باسم احتفال إسبانى Spanish fies-ta سنة ١٩٤١ .

٧- باختشى سراى : موسيقا أسافيف Boris Asafiv (١٨٨٤ - ١٩٤٩) عرض على مسرح البولشوى بموسكو فى ١٩٣٦/٦/١١ .

الموسيقا الأوركسترالية :

١- أرابسك : أطلقها شومان Robert Alexander Schumann (١٨١٠ - ١٨٥٦) على أحد أعماله. فتبعه ديبوسى Claube Achille Debussy (١٨٦٢ - ١٩١٨) وآخرون.

٢- رمسكى كورساكوف : ألف سيمفونية (عنتر) فى ١٨٦٨ وأخذ فى تنقيحها إلى سنة ١٩٠٣ . وتدور حول عنتر البدوى البائس الذى خرج إلى صحراء الشام للصيد، فوجد طائرا ضخمًا يطارد غزالة جميلة؛ فتصدى له ونشبت بينهما معركة حامية انتهت بانتصار عنتر، ونجاة الغزالة وفرارها. وأخلد عنتر الذى أرهقته المعركة للنوم؛ فرأى فى الحلم أنه انتقل إلى مملكة تدمر، وأن ملكتها هى الغزالة التى خلصها من الموت؛ ووهبته ثلاث هبات : التغلب على المعاناة، والقوة، والحب.

وقد ألف كورساكوف أيضًا أشهر سيمفونياته (شهر زاد) سنة ١٨٨٨ . وتحتوى على أربع حركات عناوينها : الأولى البحر وسفينة السندباد، والثانية قصة الأمير كالنيدار، والثالثة الأمير الشاب والأميرة الشابة ، والرابعة مهرجان بغداد والبحر وغرق السفينة على الصخور.

٣- سانت سينس Charles Camille Saint Saens (١٨٣٥ - ١٩٢١) الذى زار مصر فى ١٨٩٥، ومات فى الجزائر، وألف:

- الكونشيرتو المصرى، وهو الخامس رقم ١٠٣ للبيانو، وضمنه أنغامًا مصرية صعيدية ونوبية.
- وذكريات الإسماعيلية ، عمل رقم ١٠٠ للبيانو المنفرد.
- والمتتالية الجزائرية.

ولعل خير ختام لهذا الاستعراض الإشارة إلى :

- البرنامج الشامل الذى صوره التليفزيون الفرنسى عن حياة كوكب الشرق أم كلثوم.

- والكتاب القيم الذى ألفته الباحثة الأمريكية فرجينيا دانيلسون عنها أيضا بعنوان (صوت مصر) ، وأصدرته دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة سنة ١٩٩٧، وأخرجه المجلس الأعلى للثقافة سنة ٢٠٠٢ بترجمة عادل هلال عنانى فى المشروع القومى للترجمة تحت رقم ٤٧٥، ثم الهيئة المصرية العامة للكتاب فى مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٦.